

**ملتقى مركز الجزيرة للدراسات حول
العلاقات العربية الروسية
فبراير / شباط 2009**

**التعاون العربي – الروسي
الأمن الإقليمي وإصلاح النظام الدولي**

غالب قنديل

رئيس تحرير مجلة "محاوِر إستراتيجية"، وعضو المجلس الوطني للإعلام في لبنان



ينفض العالم غبار السنوات المثقلة بالمخاطر والحروب التي دفعته إليها المغامرة الإمبراطورية الأميركية التي بلغت ذروتها الحاسمة مع احتلال العراق وقد شكل ذلك الحدث بذاته أقصى درجات الاختلال في ما يسمى بالنظام الدولي وعلى صعيد مؤسسات الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي على وجه الخصوص.

تتضح تلك الأبعاد بعد كل ما تكشف من خفايا تحضير الحرب الأميركية لاحتلال العراق الذي شكل بالمقدار نفسه تهديدا خطيرا للأمن القومي العربي سواء من خلال تأثير الاحتلال العسكري الأميركي للعراق على توازن القوى في الصراع العربي الإسرائيلي أم من خلال تحريك إدارة الرئيس بوش لخطة تفكيك كيانات الشرق العربي ضمن عقيدة الفوضى المتدحرجة التي طرحها المحافظون الجدد. بعد التغيير السياسي في الولايات المتحدة و مع صعود إدارة أميركية جديدة، ما يزال العالم يجتاز مرحلة انتقالية يعتبرها بعض الخبراء نتيجة لانكسار المغامرة الإمبراطورية الأميركية ويرى آخرون أنها تتسم بمحاولة إعادة صياغة العلاقات الدولية بالمنهجية الاستعمارية ذاتها وبتكييف تجريبي لسلوك الهيمنة الأحادية على الرغم من كثرة الكلام الأميركي عن الشراكة الدولية.

بين هذين الاستنتاجين المتعارضين تبقى حقيقة أن إدارة الرئيس أوباما مضطرة لاحتواء الفشل الإستراتيجي عبر الانتقال نحو مرحلة من المفاوضات الشاقة مع روسيا وكل من سوريا و إيران وإلى إدارة حركة سياسية ودبلوماسية في المنطقة تحت عنوان تسوية الصراع العربي الإسرائيلي.

ركزت العقائد الإستراتيجية الأميركية منذ نهاية الحرب الباردة على مبدأ منع نهوض قوة عالمية عظمى منافسة ولذلك فقد كانت الأولوية الحاسمة في واشنطن هي إخضاع الاتحاد الأوروبي اقتصاديا وسياسيا ومنع تحوله إلى قوة عالمية مستقلة ومنافسة، وارتكزت إعادة هيكلة العلاقات الأوروبية الأميركية على وراثة الإمبراطورية السوفيتية السابقة وضم دول أوروبا الشرقية إلى دائرة النفوذ الأميركي، وهي الدول التي تربطها بروسيا علاقات وثيقة ثقافية ودينية تاريخية جعلت منها جزءا من المجال الحيوي للنفوذ الروسي من خلال رباطي السلافية والأرثوذكسية قبل قيام الاتحاد السوفيتي واتفاقية يالطا بقرون. بالتزامن مع إلحاق الشريك الأوروبي ورسم سقف لطموحاته الاستقلالية كانت الولايات المتحدة و ما تزال تضع في رأس جدول أعمالها منع أي صعود حاسم لقوة كل من روسيا و الصين .

الإستراتيجية الهادئة في بناء القدرات الصينية الاقتصادية والعسكرية وحجم التشابكات الاقتصادية والإشكاليات التي تحيط بالمنافسة الصينية الأميركية التجارية وضعت روسيا في مقدمة الأولويات. إن تكوين القوة الروسية يشبه إلى حد بعيد تكوين القوة الأميركية من خلال محورية قطاعي الطاقة والصناعة الحربية في الاقتصاد الروسي و هو ما يجعل التناقض أشد جذرية بين القطبين الدوليين.

منذ انهيار الاتحاد السوفيتي تكثفت التدخلات الأميركية في روسيا وداخل الجمهوريات السوفيتية السابقة التي تمثل نطاقها الجغرافي السياسي الحيوي بينما كانت المنطقة العربية ساحة التدخلات الأميركية المباشرة والرئيسية في العالم حيث شكلت الغزوة الأميركية الإسرائيلية مضمون الخطة الإمبراطورية لإخضاع المنطقة في سبيل الهيمنة التامة على موارد النفط والغاز وخطوط النقل العملاقة ولتعويض تراجع سطوة القوة الإسرائيلية بعد انتصار المقاومة اللبنانية عام 2000 وسقوط هيبة الردع الإسرائيلية التي كلف بناؤها واكتسابها على امتداد العقود الماضية ثروات أميركية طائلة ورعاية سياسية ومالية وإستراتيجية وعسكرية مباشرة.

الفصل الأول

مظاهر التعاون

شنت الإمبراطورية الأميركية خمسة حروب خلال ولايتي الرئيس جورج بوش: غزو أفغانستان، غزو العراق، حرب تموز 2006 ضد لبنان، حرب القوقاز، وصولاً إلى الحرب الإسرائيلية في غزة. إن مساهمات عربية وروسية هامة كانت عنصراً حاسماً في إفشال هذه المغامرة إستراتيجياً وأدت إلى تعثرها ومنع تحقق أهدافها الكبرى وهو ما ينطبق بوضوح أشد في الحروب الثلاث الأخيرة أي حرب لبنان والقوقاز وغزة.

في الشرق العربي ومن حيث الترتيب بالأهمية بعد العلاقة الإستراتيجية السورية – الإيرانية والعلاقة السورية – التركية النامية والمتقدمة، شكل التعاون السوري الروسي أحد مصادر القوة السياسية والعسكرية لسوريا في مجابهة الضغوط ومحاولات الإخضاع وقيمة هذا البعد ناتجة من طبيعة الثقل النوعي السوري في الصراع على الشرق، من خلال الاحتضان السياسي والدعم الذي قدمته سوريا للمقاومة الشعبية العربية في العراق ولبنان وفلسطين ولما تعرضت له سوريا بفعل صلابتها في تبني وممارسة هذا الخيار المنهجي منذ احتلال العراق.

ظهرت في لبنان وغزة قدرات قوى المقاومة العربية بفضل تكنولوجيا السلاح الروسي التي كانت عاملاً حاسماً في تفويض التفوق الإسرائيلي وتحقيق انتصار واضح على العدوان والمذابح الإسرائيلية وفي القوقاز كان الجيش الروسي مباشرة في الميدان يجابه مشروع إعادة رسم المجال الحيوي الإستراتيجي لروسيا الاتحادية بهدف إخضاعها ومنعها من استعادة مكانتها التاريخية في نادي القوى العظمى.

جميع الوقائع الميدانية والسياسية تؤكد أن كلا من القوى العربية التحريرية (وبالذات كلا من سوريا والمقاومة في لبنان وفلسطين) وروسيا كانت في وضعية دفاعية إستراتيجية تصد عدواناً ومخططاً أجنبياً يستهدفها وما جرى في تلك الحروب والصراعات من مآثر وإنجازات حققت إرادة سياسية حازمة على جبهات الدفاع عن الوجود والمصالح القومية من غير أن يرقى التعاون العربي الروسي إلى مستوى صيغة للتعاون الإستراتيجي، لا في قضايا الأمن الإقليمي ولا في التعامل مع الأحداث من خلال الأمم المتحدة أو عبر العلاقات الدولية.

بوميات السنوات الأخيرة تؤكد أن التعاون العربي – الروسي في الصراع السياسي ضد الهيمنة الأميركية على الأمم المتحدة كان محدوداً وجزئياً وحكمته طبيعة القضايا والمواضيع المطروحة للتداول ومدى حدية الإصرار الأميركي على منع أو تمرير قرارات معينة وعلى الرغم من الطموحات العربية الكبرى لتجسيد تحالفات تعوض الاختلال الرهيب في توازن القوى العالمي فقد تعاملت سوريا بواقعية شديدة مع البعد الروسي منذ البداية الدامية للغزوة الاستعمارية وسمح الدور الروسي أحياناً كثيرة بتخفيف الصيغ المقترحة من قبل الولايات المتحدة كما حصل أكثر من مرة حول سوريا ولبنان في التعامل مع مشاريع القرارات الناشئة عن القرار 1559 أو المتممة لتقارير الأمين العام للمنظمة الدولية حول تنفيذه. تأثر الأداء الروسي في هذا المجال بعاملين حاسمين:

العامل الأول طبيعة المصالح الروسية وتقدير رد الفعل الأميركي ومدى قدرة روسيا على التعامل معه وإبطال الأذى الناشئ عنه، وفي هذا الإطار جاءت خطوات تطوير التعاون العسكري الروسي مع سوريا خلال زيارة الرئيس بشار الأسد التي تزامنت مع انكشاف الدور الإسرائيلي الواسع والحاسم في حرب القوقاز وبعدها اكتشفت روسيا وجود قواعد عسكرية وأمنية إسرائيلية في جورجيا وبعدها تبين أيضا أن تلك القواعد مكرسة لحماية أنبوب عملاق لنقل النفط من باكو إلى ميناء جبهان التركي فميناء عسقلان في فلسطين المحتلة لضخ النفط والغاز إلى أوروبا لتهديد الموقع الروسي في سوق الطاقة العالمية كمصدر رئيسي لأوروبا .

العامل الثاني تطور حركة الصراع في المنطقة وتوقيت التحول السياسي في الموقف الروسي مع تبدلات جوهرية يمكن البناء عليها حتى لا تدفع روسيا تكاليف مجانية وهو ما يفسر تحول الأداء السياسي الروسي خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان قبل سنتين.

كانت قمة بطرسبرغ للدول الصناعية الثماني في يوليو/ تموز 2006 هي الإطار العالمي الذي اختارته الولايات المتحدة لدعم الحرب الإسرائيلية وتبني المنطق الإسرائيلي في تدمير لبنان وارتكاب المجازر ضد شعبه وتبنت القمة بناء على الطلب الأميركي بيانا يصف العدوان الإسرائيلي بالدفاع المشروع وبالمقابل فقد ظل الموقف الروسي داخل مجلس الأمن الدولي خاضعا للمشيشة الأميركية القاضية بمنع إصدار قرار بوقف النار الفوري والشامل أي وقف العدوان وظل الموقف الروسي الفعلي على هذه الحال حتى اليوم العشرين من العدوان الإسرائيلي.

شرعت حينها مسودات المشاريع الفرنسية والأميركية بالوصول إلى المجلس في حين أن المقاومة ظهرت في موقع القدرة الرادعة للألة الحربية الإسرائيلية فباشرت روسيا بتبدل من لهجتها ومن وتيرة مواقفها حول مشروع القرار الدولي الذي انطلق باقتراح نشر قوة من الناتو في لبنان تحت الفصل السابع وبالتبني الكامل للشروط الإسرائيلية وهو ما سقط في المفاوضات بفعل فشل إسرائيل وهزائم جيشها في الميدان مما قاد بالتالي إلى ارتفاع نبرة الموقف الروسي الداعم لتعديل الصيغ المتداولة للقرار 1701.

هذا السلوك السياسي المتحفظ يمكن اعتباره نتيجة لاختلال توازن القوى العالمي وبفعل الخشية الروسية من تكرار تجربة غزو العراق حيث لم تقف المعارضة الروسية في كبح جماح الإدارة الأميركية التي ضربت عرض الحائط بمجلس الأمن الدولي وبميثاق الأمم المتحدة وبجميع الأعراف الدولية السابقة، وقدمت في حرب العراق، عرض قوة للترهيب والترويع ضد القوى العظمى المنافسة بما فيها روسيا وإلى شعوب المنطقة العربية وقواها التحررية.

تجلت أمام العرب خلال حرب لبنان 2006 القيمة النوعية الحاسمة للسلاح الروسي الذي مكن المقاومين اللبنانيين من تدمير دبابات "الميركافا" الإسرائيلية ومن إصابة البارجة "ساعر" وإخراج البحرية الإسرائيلية من الحرب في أيامها الأولى وتلك هي إنجازات مشتركة للمقاوم العربي وللتكنولوجيا الروسية.

في الحروب الخمسة التي شنتها استخدمت الإمبراطورية هيمنتها على الأمم المتحدة وما يسمى بالنظام الدولي كما سخرت قوتها العسكرية وترسانة السلاح التي تضعها في تصرف إسرائيل والدول التابعة للنفوذ الأميركي مباشرة وظهرت بصمات واشنطن المباشرة في التخطيط والتحصير والتنفيذ لجميع فصول تلك الحروب بكل ما فيها من مذابح وجرائم ضد الإنسانية

وتسلط فاضح على الأمم المتحدة وغالبا كانت مواقف روسيا في مجلس الأمن الدولي تتكفل بإحداث تعديلات متفاوتة الأهمية على الصيغ الأميركية والأطلسية المقترحة.

لقد تحول مجلس الأمن الدولي إلى جهاز تنفيذي للسياسة الأميركية التي قامت على غطسة القوة والهيمنة الأحادية وتصرفت الولايات المتحدة بمنهجية إملء الطلبات واستخدمت ضد روسيا أدوات تدخل وتهديد من قلب المنظمة الدولية كتقارير حقوق الإنسان ومسارات التفاوض المنبثقة عن صيغ التعاون الدولي في مجالات سباق التسلح والتجارة العالمية وغيرها.

الفصل الثاني

المصالح المشتركة

يقول زبيغنيو بريجنسكي المستشار السابق للأمن القومي في الولايات المتحدة في كتابه الفرصة الثانية الذي صدر مؤخرا: إن الشرق الأوسط أصبح في الوقت الراهن وسوف يظل مقياس نجاح أو فشل قيادة الولايات المتحدة للعالم.

بذات القدر يمثل الحضور الروسي في هذه المنطقة من العالم مقياس نهوض القوة الروسية وقدرتها على إثبات وجودها في مجابهة التحدي الأميركي على الصعيد العالمي. إن علاقات روسيا بكل من تركيا وإيران والدول العربية هي التعبير الحي عن هذه الحقيقة وهي الأساس الواقعي لبحث مستقبل التعاون الإستراتيجي العربي الروسي.

ينطلق التعاون الإستراتيجي بين روسيا والعرب نظريا من البيئة الإستراتيجية أي من وحدة المجال الحيوي ويقوم على قاعدة المصالح الإستراتيجية المشتركة في صد الأخطار الناشئة عن الهيمنة الأميركية الأحادية على العالم وفي الحاجة التاريخية إلى تحقيق تناغم قوى وطاقت شعوب الشرق في التأثير على الواقع الدولي الجديد والتفاعل معه بصورة إيجابية ومنتجة.

إن مساحة واسعة من المصالح والمكونات الإستراتيجية المشتركة تجمع بين روسيا والعرب أبرزها:

- 1- استكمال نهوض القوة الروسية عالميا يقتضي إنجاز تصفية آثار التدخلات الأميركية المباشرة داخل روسيا وفي مجالها الحيوي وحدائقها الخلفية بالإضافة إلى مجابهة الأخطار الناشئة عن التحرك الأميركي لتطويق القوة الروسية ومحاصرتها في أوروبا وآسيا على السواء من خلال:
 - القواعد العسكرية الأميركية التي تتجه روسيا للتخلص من وجودها في الجمهوريات السوفيتية السابقة.
 - مشروع الدرع الصاروخي الأوروبي.
 - تداعيات الأزمات المتحركة في الجوار الروسي نتيجة الحرب الأميركية العائرة في أفغانستان وما تشهده كل من باكستان والهند على وجه الخصوص.
 - حروب الأنابيب العملاقة المتنقلة التي يديرها تحالف أميركي أوروبي من الشركات العابرة للقارات بالتعاون الوثيق مع مجموعات صهيونية فاعلة دوليا، مالية ونفطية تتبنى خريطة عالمية للطاقة مركزها إسرائيل.

2- النفوذ الروسي في منطقة الشرق العربي والإسلامي هو تعبير طبيعي عن حقيقة التشابكات التاريخية والسياسية والثقافية التي تجمع الروس والعرب والتحرك الروسي في المنطقة لمجابهة النفوذ الأميركي أو لموازنته هو أحد مستويات الصراع بين روسيا والولايات المتحدة وهذا ما يطرح احتياجات روسية عسكرية وأمنية تتلاقى والمتطلبات العربية للحد من سطوة القوة الأميركية في المنطقة.

3- الوجود العسكري الأميركي المباشر في المنطقة العربية يمثل خطرا جديا على الإرادة الاستقلالية في التنمية والتقدم والسيطرة الوطنية على الموارد وهذا الوجود البري والبحري تكثف في السنوات الأخيرة منذ احتلال العراق ويعمل الأميركيون لتوسيعه وتطويره في البحر للسيطرة على الممرات المائية للتجارة الدولية ونقل النفط والغاز سواء من خلال الاستثمار المكشوف لعمليات القرصنة المنظمة والملتبسة أم في البناء الإستراتيجي على نتائج الحروب الإسرائيلية ضد لبنان وقطاع غزة حيث تعزز وجود أسطول الحلف الأطلسي تحت عنوان منع تهريب السلاح والمقصود بهذا التواجد البحري تعويض الهزائم الإسرائيلية والأميركية في المعارك البرية وإحكام الطوق على قوى المقاومة والسيطرة على الممرات التي تعبرها الناقلات العملاقة أو المقرر أن تجتازها الأنابيب العابرة للقارات من منابع الطاقة إلى أسواقها.

4- الحلف الإستراتيجي الأميركي - الإسرائيلي يشكل تهديدا وجوديا للعرب وتعبيراته السياسية مبنية على تحقيق هيمنة إسرائيل على المنطقة من خلال الالتزام الأميركي المتجدد بتفوق إسرائيل العسكري في المنطقة وحيث يسخر الأميركيون انتشارهم الأمني والعسكري في خدمة منظومة العدوان الإسرائيلية وهو ما كشفتها فصول الحرب على لبنان وغزة وما تعرضت له سوريا من ضغوط واعتداءات في الفترة الأخيرة.

5- العملية السياسية التي تقودها الولايات المتحدة في المنطقة من خلال سيطرتها على الأمم المتحدة و عبر أشكال متعددة من التدخل توظف في خدمة الهيمنة الإسرائيلية ولإعادة صياغة العلاقات في المنطقة بما يكرس هذه الهيمنة تحت عنوان النظام الإقليمي الجديد وهي تمارس تدخلا سافرا لمحاصرة قوى المقاومة العربية بلانحة الشروط الإسرائيلية ومن آخر التعبيرات تصريحات رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي جون كيري حول حرب غزة والموقف العدائي نحو حركة حماس وفصائل المقاومة التي تمثل غالبية الشعب الفلسطيني حسب نتائج آخر انتخابات تشريعية.

6- التورط الإسرائيلي المباشر في خطط منع نهوض القوة الروسية كما تبين في حرب القوقاز وفي الدور المحوري لمجموعات الضغط الصهيونية داخل روسيا منذ خطة إعادة بناء القوة الروسية التي وضعها الرئيس فلاديمير بوتين في أعقاب سنوات من التراجع والتلاشي الاقتصادي والسياسي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وهذا البعد الإسرائيلي ليس مجرد مصادفة ولا هو استثناء، إنه نتيجة مباشرة للترابط التكويني بين الحركة الصهيونية وما تمثله من مصالح وشبكة نفوذ وبين الرأسمالية الأميركية وتكتلاتها العملاقة الصناعية والمالية وشركاتها متعددة الجنسيات وهو أيضا تعبير عن محورية الدور الإسرائيلي كقاعدة ارتكاز إستراتيجية في خطوط النقل العملاقة للنفط والغاز التي يراد منها استخدام موانئ فلسطين المحتلة لتزويد أوروبا بالطاقة عبر تهميش الدور الروسي الاقتصادي والإستراتيجي في هذا المجال.

7- استندت الهيمنة الأحادية الأميركية إلى تطويع الأمم المتحدة في السيطرة على العالم وخوض الحروب ونالت المنطقة العربية الحصة الأوفر من القرارات الدولية المكرسة لتثبيت الهيمنة الأميركية الإسرائيلية وبالتالي فإن التوازنات الدولية التي أعقبت فشل الغزوة الاستعمارية على المنطقة تفترض العمل لتقييد السيطرة الأميركية الأحادية التي تعبر عنها

صيغة اتخاذ القرارات في مجلس الأمن الدولي والمصلحة العربية تنطلق من التصدي لما تدعوه الأدبيات العربية، الكيل بمكيالين في التعامل مع قضايا المنطقة وهي ظاهرة عمرها من عمر قيام إسرائيل واقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه عام 1948 حيث تراكمت سلسلة من القرارات التي تمردت إسرائيل عليها ورفضتها بحماية أميركية دولية بينما انصرفت الولايات المتحدة في السنوات الأخيرة لاستصدار قرارات ضد العراق وسوريا ولبنان وعملت على الفور لوضع آليات تنفيذية تحقق المصالح الإسرائيلية.

8- الخلل القائم في المنظمة الدولية يصيب مصالح دول عديدة وفي مقدمتها المصالح الروسية والصينية على الرغم من تمتع هاتين الدولتين بحق النقض الذي أشهراه قبل عامين في أول رسالة تمرد على المشيئة الأميركية في المنظمة الدولية بعد الفشل الإستراتيجي الأميركي الإسرائيلي في حرب يوليو/ تموز 2006 عند طرح الولايات المتحدة مشروع قرار للتدخل في بورما.

9- بنية إدارة المنظمة الدولية وسائر الهيئات الناشئة عنها أو المرتبطة بها وخضوعها الكلي للهيمنة السياسية والأمنية الأميركية تشكل مصدرا أساسيا للتهديد والخلل في التوازن العالمي وقد برزت هذه المسألة بكثافة في أزمتا البلقان ولبنان والعراق والسودان وغيرها من القضايا والملفات التي يعمل موظفو الهيئات الدولية على تكوينها بتعليمات أميركية مباشرة، وتحضيرها كعناصر ضغط وتهديد تستعمل في التطويق السياسي ويشمل ذلك بالتأكيد الأمانة العامة للأمم المتحدة وأجهزتها والقوات الدولية المنتدبة بقرارات من مجلس الأمن الدولي ويهيمن على تكوينها حلف الناتو بصورة شبه كلية، والقضاء الدولي والوكالة الدولية للطاقة النووية الغافلة عن ترسانة إسرائيل والمتفرغة بالمشيئة الأميركية لتهديد سوريا وإيران في تكرار هزيل للتفتيش الدولي الذي سبق الحرب على العراق.

هذه المعطيات تمثل أساسا متينا لعلاقة إستراتيجية عربية روسية وهي تدفع إلى الاستنتاج بأن هذا التعاون الإستراتيجي قابل للتطور أي كان شكل التغيير المرتقب في السياسة الأميركية وبالتالي أي كان شكل الصراع القادم مع القوة الأميركية الطاغية التي تسعى لاحتواء الفشل الإستراتيجي من غير مراجعة جدية لمنطق الهيمنة والسيطرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية على العالم بدعوى القيادة وحيث تتحول الشراكة في نظرها إلى ترتيب جديد للأدوار من حول قوة قائمة كما تصفها أدبيات الخبراء والمستشارين الأميركيين الذين صبوا جام غضبهم على تفرد إدارة بوش في قيادة العالم من غير شراكات جدية.

الفصل الثالث

إستراتيجيات العرب وروسيا

يفترض مفهوم التعاون الإستراتيجي العربي الروسي وجود إستراتيجية عربية وإستراتيجية روسية متقابلتين يمكن البناء على المشترك بينهما من أهداف واستخراج أطر التعاون والعمل المشترك في خدمتها.

من مصاعب وتعقيدات البحث العلمي أنه في الواقع لا وجود لموقف عربي واحد يمكن اعتماده كقاعدة للتعريف والدراسة سواء في موضوعات الأمن الإقليمي العربي أو في موضوع إصلاح الأمم المتحدة وما يسمى بالنظام الدولي ولذلك ننطلق في البحث من واقع تعيين الخطر الإستراتيجي على العرب ومصالحهم بالعدو الإسرائيلي وباعتبار التناقض مع إسرائيل تناقضا رئيسيا في المنطقة،

وباعتبار جميع التناقضات والتعارضات الأخرى تناقضات ثانوية، وهذه المنهجية ليست اختياراً عاطفياً أو اعتباطياً بل هي خلاصة مكثفة لعقود من السيطرة الاستعمارية شكل فيها قيام الدولة العبرية ودورها العسكري والسياسي مرتكز السيطرة على الموارد والأسواق العربية وعصب الاستتباع التاريخي للمنطقة.

إن وجود تناقضات وتباينات إقليمية بين بعض الدول العربية وإيران هو أمر قديم جداً قدم نظام الشاه، الحليف الأهم لإسرائيل منذ قيامها وما فعلته الجمهورية الإيرانية الفتية هو عكس الاتجاه بانتقالها إلى اعتبار تناقضها مع إسرائيل رئيسياً انطلاقاً من حقيقة أن إسرائيل هي المركز الفعلي للهيمنة الاستعمارية على المنطقة ولا يمكن لقوة إقليمية طامحة للتحرر إلا أن تكون على تناقض مباشر ووجودي معها، وتلك فرصة ثمينة للعرب يسعى الجهد الأميركي السياسي والأمني لتبديدها بهدف حماية إسرائيل ومنع قيام علاقات تعاون عربية إيرانية في مواجهة الهيمنة الصهيونية على المنطقة.

أولاً: الافتراق في الخيارات الإستراتيجية على الصعيد العربي هو حسيطة ارتباط بعض الحكومات العربية بالسياسة الأميركية في المنطقة وهي دول لا تجد في العلاقة مع روسيا ما يتخطى التعامل التجاري الذي يربطها بالعديد من دول العالم.

هذا الفريق من النظام العربي الرسمي تبنى نظرة إستراتيجية تعتبر إيران مصدر الخطر على المصالح العربية وقد خطا في حربي إسرائيل على لبنان وغزة، نحو التقارب مع النظرة الأميركية الإسرائيلية لأوضاع المنطقة وبالتالي فعلاقاته مع الاتحاد الروسي لم تكن على حساب تلك الرؤية الإستراتيجية التي تضع التناقض الرئيسي مع إسرائيل في مكانة ثانوية وتسخر الجهود والإمكانات لمقارعة قوى التحرر والصمود العربية بادعاء علاقتها الوثيقة بإيران وقد جاءت حرب غزة وتحولات السياسة التركية لتكشف للملأ حقيقة هذا التوجه وفي نتيجة حرب غزة وفشل المشروع الأميركي الإسرائيلي للحرب شرعت تتبلور مقدمات مراجعة جزئية لهذا الخيار خصوصاً بعد الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة ونتائجها.

ثانياً: سوريا والمقاومة اللبنانية والفلسطينية تمثل قوى المجابهة والصمود في المنطقة العربية ضد العدوانية الإسرائيلية التي تشكل مصدر الخطر الإستراتيجي على الاستقرار والتقدم في المنطقة وقد تبلورت مؤخراً في قمة الدوحة كتلة عربية وازنة وفاعلة تنصدها قطر وهي جبهة مساندة لهذه القوى من موقع الاستقلال النسبي عن السياسة الأميركية في المنطقة وبالتناغم مع مناخ الشارع العربي الذي دفعته حرب الإبادة الإسرائيلية في غزة نحو صحوة قومية تاريخية وبقدر ما يمثل التعاون السياسي والعسكري القائم بين سوريا وروسيا محورا هاماً في هذه المجابهة إضافة إلى العلاقات السياسية بين روسيا وكل من حماس وحزب الله خلافاً للتحريم الأميركي المعلن، ينبغي تثمين المبادرة القطرية للشراكة مع إيران وروسيا في تأسيس أوبك الغاز.

لا بد في هذا المجال من استحضار مساهمات عربية مباشرة في تحريك التفاوض لتأسيس أنابيب عملاقة عربية روسية إيرانية تركية لنقل النفط والغاز إلى موانئ عربية على المتوسط بدلاً من المشاريع الأميركية – البريطانية الإسرائيلية التي حركت حرب لبنان وحرب القوقاز وحرب غزة واستهدفت تمكين إسرائيل من التحول إلى مركز عالمي متقدم لسوق الطاقة على حساب العرب وروسيا معاً.

ثالثاً: إن التبادل التجاري وشراء الأسلحة التقليدية أو إنتاجها والتعاون النفطي لا تمثل بذاتها تغييراً إستراتيجياً يستحق التوقف والاهتمام ولا يرتب مجرد قيامها أي تهديد جدي للهيمنة الأميركية الأحادية في المنطقة والعالم، وقد شهدنا في السنوات الأخيرة محاولات حثيثة من جهات عربية بطلب أميركي مباشر لاستخدام هذا النوع من العمليات المالية والتجارية لمحاولة الحد من تطور العلاقة الروسية بكل من سوريا وإيران ولإجراء مفاوضات اصطدمت بما تملكه موسكو من وقائع عن جذرية التورط الأميركي والإسرائيلي في تفويض الاستقرار الروسي ومحاصرة القوة الروسية. وبعد الفشل الإستراتيجي الذي منيت به في المنطقة أظهرت الولايات المتحدة الاستعداد للتكيف مع قيام علاقات مضبوطة وتحت السيطرة بين روسيا وعدد من الدول العربية، بحيث لا تمثل تهديداً جدياً للتوازنات القائمة، كما حصل في شأن الهبة الروسية للجيش اللبناني من طائرات الميغ المنسقة التي لا تخل بالتوازن بين لبنان وإسرائيل أو على صعيد صفقات السلاح واتفاقات التصنيع العسكري المشترك مع بعض الدول التي لا تقيم صلات مباشرة مع قوى المقاومة وليست في حالة حرب مع إسرائيل (الأردن - مصر - الجزائر - الإمارات - السعودية وغيرها).

حكومات تلك الدول التي تربطها صلات وثيقة مع الولايات المتحدة لم تتخذ قراراتها من غير المشورة الأميركية بشأن حدود التعامل العسكري مع روسيا، وفي الحالة اللبنانية تشير بعض المعلومات إلى أن الإدارة الأميركية ساندت الخطوة الروسية لاستثمارها في إضعاف المواقف الداعمة للمقاومة ولإستراتيجية الدفاع الوطنية داخل الحكومة اللبنانية، والتي تتطلب تلبيتها عملياً تزويد الجيش بشبكات صواريخ للدفاع الجوي وبمضادات للدروع بدلاً من طائرات لا يمكن استخدامها في تغيير التوازن العسكري وفي لجم العريضة الإسرائيلية الناتجة عن التفوق الجوي بعدما ثبتت المقاومة في لبنان وفلسطين خروج القوات البحرية وعجز القوات البرية الإسرائيلية.

رابعاً: الإستراتيجية الروسية واضحة ومحددة وهي تقوم على خدمة المصالح القومية الروسية وقد انطلقت في تأكيد الحضور الروسي على النطاق العالمي منذ خطاب الرئيس بوتين في مؤتمر ميونيخ في فبراير/ شباط 2007 الذي قال فيه "كفى، إننا سندافع عن مصالحنا". جاء هذا الإعلان تنويجاً لمسار عملية ترميم القوة الاقتصادية والسياسية الروسية والعودة بها إلى المسرح العالمي بعد انكشاف ترنح المغامرة الإمبراطورية في ورطة العراق وتداعي هياكل الهيمنة الأحادية باعتراف الأميركيين أنفسهم. التدرج في وتيرة المجابهة يشكل سمة ملازمة للنهج الروسي الواقعي ويتوقع العديد من الخبراء الأميركيين مفاوضات متشعبة وصعبة بين إدارة أوباما والقيادة الروسية سوف تشمل العديد من القضايا الدولية والإقليمية ومن بينها الصراع العربي الإسرائيلي وما تدعوه الأدبيات الأميركية بالعملية السياسية.

خامساً: لا تشير المعلومات المتداولة والمعلنة إلى تبني روسيا لرؤية محددة بشأن الصراع العربي الإسرائيلي أو بصدد إصلاح الأمم المتحدة ومن الواضح بالمقابل أن إدارة الرئيس أوباما تتجه نحو تبني منهجية التفاوض على قاعدة تثبيت الأولويات الإسرائيلية المتصلة بشطب حق العودة وفقاً للمشروع الذي أعده مستشارا الرئيس الأميركي بريجينسكي وسكوكرفت عن دولة فلسطينية منزوعة السلاح بالإضافة لحظر التعامل مع فصائل المقاومة الفلسطينية والسعي لتحريك التفاوض من أجل التفاوض وهو سعي يقع اليوم في قبضة بنيامين نتنياهو.

إن السلوك الروسي لم يتخط حدود التمييز الإعلامي من خلال عضوية روسيا في اللجنة الرباعية التي مارست ضغوطاً على قيادة حركة حماس منذ فوزها في الانتخابات التشريعية الفلسطينية عام 2005 لمصلحة إسرائيل.

الإدانة الروسية المعلنة لجدار الفصل العنصري وللمذابح التي ارتكبتها جيش الاحتلال الإسرائيلي والمبادرات الروسية السياسية التي عبر عنها استقبال وفود من قيادة حركة حماس لم ترق إلى مستوى الموقف السياسي القادر على إخراج دور اللجنة الرباعية من قبضة السياسة الأميركية ومسلماتها الإسرائيلية وبما في ذلك الدعوة الروسية الخيرة لعقد مؤتمر في موسكو حول الصراع العربي الإسرائيلي.

الفصل الرابع

آفاق التعاون

إصلاح النظام الدولي والأمم المتحدة

إن إصلاح الأمم المتحدة ينطلق من فكرة كسر احتكار الدول الخمس الكبرى لحق الفيتو في مجلس الأمن الدولي، وهنا يمكن وضع الموقف الروسي في دائرة سؤال كبيرة، فثمة فارق بين تطلع روسيا للعب دور الشريك الكامل مع الولايات المتحدة في اللعبة الدولية الكبرى أو لتحسين شروط الشراكة وبين أن تتحاز إلى خيار إعادة تكوين النظام الدولي وتقديم صياغة جديدة لمنظومة العلاقات الدولية ومؤسسات الأمم المتحدة تحقق الشراكة والتعاون والتوازن وبالتالي تحرير الأمم المتحدة من تبعات القوة والهيمنة.

على روسيا الإجابة عن السؤال هل لديها الاستعداد لتوسيع قاعدة حق النقض في مجلس الأمن وخوض معركة سياسية وقانونية داخل المنظمة الدولية لتغيير قواعد العمل وأنظمتها بما يحقق شراكة عالمية تحفظ مصالح وحقوق الدول المستضعفة والمهددة؟

تلك المعركة ستكون ميادينها جميع ساحات الصراع والتوتر في العالم وجميع مستويات المنافسة والصراع بين الولايات المتحدة وروسيا التي سيكون عليها أن تقود جبهة عالمية لتصحيح العلاقات الدولية وإعادة بنائها. إصلاح الأمم المتحدة له بداية بسيطة ومعادلة معروفة من خارج مساومات القوى العظمى، فيكفي نقل الصلاحيات الفعلية التشريعية والتنفيذية المتصلة بتكوين أجهزة الأمم المتحدة ومؤسساتها إلى الجمعية العامة المغلوبة على أمرها منذ قيامها، بالتوازي مع إعادة تكوين قواعد حق النقض في مجلس الأمن من خلال المقاعد الدائمة المخصصة للتكتلات والمجموعات الإقليمية وبقدر ما يثير هذا الطرح الاستهجان فإنه الإثبات الدامغ على أن إصلاح الأمم المتحدة وما يسمى بالنظام الدولي شعاران يستعملان لأغراض التسويق السياسي من غير وجود إرادة جديّة بهذا المستوى.

حتى اليوم تسعى روسيا لشراكة أوثق بين مجموعة الخمسة الكبار وهي كالولايات المتحدة تنظر إلى توسيع مجلس الأمن الدولي بقياس انعكاس التوازنات الجديدة على المجلس وقراراته في الأزمات الكبرى ومن هنا سوف تكون موضع جدل وتجاذب حتى بالنسبة لروسيا، طموحات بعض الدول العربية لإحداث مقعد عربي دائم العضوية أسوة بالمجموعات الكبرى التي يقترح تمثيلها في مشاريع الإصلاح المتداولة والمعطلة بالمشيئة الأميركية.

- العناوين والموضوعات التي تشكل مساحة التعاون في الأمم المتحدة بين العرب وروسيا كثيرة وتحت هذا السقف الذي نعتقد بأنه لم يصبح ممكن التحقق:
- إلزام إسرائيل بتطبيق القرارات الدولية الصادرة بحقها منذ ستين عاما.
 - إعادة تعريف الإرهاب وإسقاط المنطق الأميركي الذي يشمل المقاومة وحركات التحرر بهذا التصنيف.
 - مراجعة تركيب أجهزة المنظمة الدولية لتصفية آثار الهيمنة الأحادية الأميركية على العالم .
 - إصلاح قواعد العمل الإدارية والمالية في الأمم المتحدة وكف التدخلات التي تمارسها أجهزة المخابرات الأميركية في تعيين المندوبين والمفوضين الدوليين وبرمجة أهدافهم.
 - إعادة النظر في التفويضات الصادرة عن المنظمة الدولية لقوات عسكرية غير أممية تستخدم الولايات المتحدة عبرها الغطاء الأممي لغايات سياسية تخدم مصالحها.

التعاون العسكري والأمني

تقضي المصلحة العربية بتكثيف وتنمية التعاون العسكري والأمني مع روسيا على جميع المستويات وضمن حدود القابلية الروسية للتجاوب، ولنسأل بداية: هل تضع روسيا خطة لمجابهة المشروع العسكري الأميركي الهادف إلى السيطرة على الممرات المائية الإستراتيجية في المنطقة من خلال حضور مكثف للأسطول الروسي بدلا من السعي لتصبح روسيا مقبولة في صيغ الشراكة التي تقودها الولايات المتحدة وترسم أهدافها؟

هل تنتقل روسيا بعلاقات التعاون الدفاعي العسكرية والتقنية مع سوريا وغيرها من الدول العربية، إلى مستوى يضاهاه العلاقة الأميركية – الإسرائيلية وبالتالي تكوين توازن إستراتيجي جديد؟

للوهلة الأولى تبدو طموحات مبالغ بها ولكن التطورات القادمة سوف تحمل معها العديد من التغييرات الكبرى وغير المتوقعة في العالم والمنطقة وهي قد تجعل ما يبدو اليوم صعب المنال أمرا ممكن التحقق ولا بأس من التفكير بهذا الاحتمال من الآن.

الأولوية العربية في التعاون مع روسيا يجب أن تكون قيادة تحرك دولي يشطب حظر التسلح على قوى المقاومة في المنطقة بينما تباح لإسرائيل أخطر الأسلحة المحرمة دوليا من الترسانة الأميركية بما فيها السلاح النووي وأسلحة الدمار الشامل بجميع أنواعها.

إن المقاومة هي عنوان التحول التاريخي في الوضع الإستراتيجي للمنطقة وهي المفتاح الجديد للجم التهديد الصهيوني وإقامة توازن نوعي يحمي العرب من مخاطر العدوان والهيمنة، وما لم يفرض على العالم الاعتراف بشرعية هذا المولود وبحقه في التسلح دفاعا عن حقوق مشروعة يغتصبها الصهاينة بالدعم الأميركي وبالتغاضي الدولي فمعنى ذلك أن العالم ما زال يلقي بثقله الرهيب على أجساد الأطفال والنساء والشيوخ من فقراء العرب الذين قتل منهم الحروب الأميركية الإسرائيلية مئات الآلاف في العراق وفلسطين ولبنان خلال أقل من عشر سنوات ومعنى ذلك أيضا أن مذبحه غزة ستكون قاعدة قابلة للتجدد في أكثر من مكان يقطن فيه البسطاء ويتطلع على السيطرة عليه قراصنة البر والبحر الدوليون المدججون بالسلاح وأدوات الدعاية والخداع الحديثة التي باتت الشرعية الدولية من مخزونها الخطير.

ختاما إن الحوار العربي الروسي هو الطريق للتفاعل حول خطوط التعاون والعمل المشترك من موقع المصالح المشتركة إستراتيجيا واقتصاديا وسياسيا وإن وضع جدول أعمال لهذا الحوار هو نقطة الانطلاق التي لا بد منها.

نسجل هذه الحقيقة ونضع بالتزامن معها الحاجة الأكدية إلى حوار عربي - عربي حول التحولات العالمية والإقليمية بدروسها ومتطلباتها وحوار عربي إيراني وحوار عربي تركي حول الشؤون الإقليمية المشتركة بجميع مشكلاتها وتحدياتها بحثا عن سبل التعاون لمواجهة التحدي الرئيسي في المنطقة، التحدي الذي كان وما زال وسوف يبقى حتى إشعار آخر هو التحدي الصهيوني.